الوَليُّ

المقام غرفة على المحارة، تتسع لضريح العارف بالله سيدي عامر، وسرير حديدي ينام عليه الشيخ النوبي. مشربية على رأس الباب تُدخل الهواء لهما، ونافذة من الحديد المفرّغ تطل الشمس منها كل صباح، ويسترق الصغار منها النظر، ليطمئنَّ الناسُ أن الشيخ وعباءته في الداخل. يأتي الناس كل جمعة بعد صلاتهم في المسجد المجاور، يحبُّون على يد الشيخ ويقرأون الفاتحة لسيدي عامر، ويدعون لهما بدوام القرب. الشيخ النوبي يحب الوصل، لكنه – الآن – لابد أن يزيل العباءة من فوق الضريح، يلتقط عكَّازه المتشعِّبَ، ويخرج من الغرفة متجها إلى البلدة، وهو أمر لو تعلمون عظيم.

الريح في الطريق نقلت الخبر في غمضة عين. تسارع الناس إلى بيوتهم، وأغلقوها وراءهم جيدًا. العين الوحيدة التي يسمح لها بالرؤية هي عين رجل البيت، يقف على السطح، ويراقب من بعيد الشيخ النوبي، وخطى

عكازه ذي الثلاثة أصابع. أوراق الأشجار الصفراء تسقط على شال الشيخ، وتكسو الأرض، أصوات تهمس من التراب، ليست صرخات، ولا صلوات، بـل مزامير، وطبول احتفال تدق، مع قلوب خلف الأبواب. حتى الآن، لن يشـير بعكازه إلى باب بعينه، لا يزال يعفِّر الطريق بمشية بطيئة، تلهث وراءها أنفاس الناس. يعرف الشيخ الأعين التي تترقب عكازه، يستطيع أن يشـفّ الأبواب والنوافذ بعينيه، لكنه لا يدخل – أبدًا – البيوت دون استئذان، للبيوت حرمة لا يتعدَّاها أولياء الله الصالحين، وهو ضيف ثقيل رغم ذلك، لا يكتفي برشـفة شـاي كبقية الناس عندما يزورون بعضهم البعض، لكنه يرتشف كوب الشاي لآخره، لآخر نفَس.

توقَّف الشيخ النوبي أخيرا أمام عتبة "الشحات"، رجل يفلح الأرض، ولديه ثلاثة ذكور وامرأة، وبهيمتان. كلهم يختبئون في آخر البيت، والشحات مصلوب على السطح، يفكر في مصيره. ماذا لو اختاره الشيخ للضيافة، ماذا لـو خلع العباءة ونفضها أمام عتبته. سـيجلس أمامها ولن يرحل. يا لهذا الرجـل، لا يدري لماذا يحبه الناس هكذا؛ لا ينكر أبدًا كراماته التي تتجلى في كل بيوت البلدة، كان يفعل مثلما يفعلون، يصلي في جامع سيدي عامر، رغم المسافة، يحبّ على يده كل جمعة، ترسل امرأته الشاي والسكر، والخبز الملدّن، وكنكة من اللبن الدافئ كل ليلة. الشحات كريم، لا يعترض على أفعال امرأته، كل يوم تحكي له كرامات الشيخ، وهو –بأذن من طين– يستمع لحكاياتها. بالأمس دار الحديث حول حريق سيندلع من البر الشرقي، تمسك

النار الغاضبة في أشجار الموز، تصل إلى البيت الفلاني، بعدها البيت العلَّاني، ينتهي الشيخ من الحديث فيسرع الناس بالجرادل والمقطاف، يصِلون ويرَون ألسنة النار تشتاط، تأكل جدار البيت الأول وتصل إلى البيت الثاني. أطعم الناس النيران وسقوها حتى اختفت. استطاعوا انقاذ البيت والبهائم، وعدّوها من كرامات الشيخ النوبي التي لا تنتهي، منذ جاء إلى البلدة، منذ سبعين عامًا، قبل أن يولد الشحات، وقبل أن يولد أبوه أو جده. هو لا يقدر على ضيافته اليوم، ولا بعد سنة من الآن، لن يكمل الأربعين حتى يكلِّف امرأته فوق طاقتها، ماذا ستفعل المسكينة دونه؟ سؤال يأكل رأسه، والشيخ ينفض عباءته أمام البيت، وينادي بصوت أجش أن يفتح الباب؛ يفتح الله أبواب الجنة في وجهه.

الشحات لا يريد أن يفتح الله أبواب الجنة، أو النار، لا يريد أن يفتح الباب لهذا الشيخ النوبي، لا يريد لامرأته أن تشق صدرها حزنا عليه، ولا لصبيانه أن يروه مُخشبًا، لا يستطيع أن يحمل أحدهم على ظهره، يريد أن يلعب الآن معهم "ثبت صنم"، وتتسلل امرأته بخفة، وتضربه بكفها الطفولي. ماذا يدور في عقلها الآن؟ نزل الشحات من السطح، وتوجَّه إلى غرفتهم، وجد الصبية يحتضنون أمهم في خوف. تساءلت إن كان وقف على عتبتهم، أخبرها أنه فعل. أبعدت الصبيان من حضنها، تساءلت إن كان خلع العباءة أم لا، أخبرها أنه فعل. تسمَّرت كثيرًا، دعت الله في كل صلاة، ومع كل كوب لبن ترسله للرجل، ألا يفعل، وأن يجعل يومها قبل

يوم زوجها. كانت خائفة، احتضنته، "ماتفتحش الباب يا حبة عيني". المرة الأولى التي يبكي فيها الشحات أمامها، احتضنوه وتمسَّكوا بجلبابه عندما توجه إلى الباب، لم يقدر على جرِّهم؛ وقَع، والشيخ النوبي يستمع لما يحدث، يحثه على وداعهم، والخروج إليه بجلباب أبيض معطر بالمسك، أمام أهل البلدة الذين تجمَّعوا بالقُرب من بيته، يراقبون في حزن، ويحثون نساءهم على عمل صواني الطعام التي تليق بليلةٍ هذا الشحات الطيب.

الباب ظل مغلقا لثلاث ليال، والشحات، في الداخل، يأكل الفتات مع أولاده، ويشرب من طرمبة دقّها حديثا في حوش البيت. الشيخ لم يتزحزح من مكانه، تأتي الصبايا بصواني الطعام، عليها الأرز والخضار، وهُبَر من لحم محمَّر. يراقب أهل البلدة الشيخ ويتمنَّون أن يمَلَّ جلسته، ويترك الشحات يربِّي أولاده. يسألون عن أسباب اختياره؛ رجل غلبان، وله واجب عند كل نفر منهم. ربما لأن الدنيا لا تترك إلا الفاسد. يوم بعد يوم تأتي الوفود إلى الشيخ النوبي، ويعقدون المجالس، ويعرضون أعمال الخير عليه، اقترحوا أن يشيدوا مقامًا جديدًا يحمل قبة خضراء لسيدي عامر، وأن يرفعوا أعمدة الجامع، يحفروا الأرض، ويوصلوا الماء إلى الميضة. الشيخ يعرف أن نيتهم ليست خالصة لله، رغم ذلك وافقهم على الأمر. بعد عشرين يوما، وعلى الفور، شرعوا في أعمال الهدم والبناء والحَفْر، حتى النساء شاركن الرجال في حمل قصعات المونة، والأطفال في حمل القوالب. والشحات يجلس مع أهله، يعرف ما يدور بالخارج، يمسك كسرة خبز. يغمسها في قعر طبق

مدهون بالمش السائل، ويعطيها لصغيره. يسأل عن زوجته، لا يعلم الأبناء أيـن ذهبت. للحظة فكَّر أنها خرجت تستسـمح الشـيخ حتى يرحل، أو تعرض عليه أن يأخذ حياتها، فتصير خادمة في مقام سيدي عامر. ارتعش الشحات وقام من جلسته، استند على ابنه البكري، والصغير يلعب في ذقنه النابتة، لم يجدوها في المطبخ، ولا على السـطح، وجدوها في شونة البهائم، تجلس في مربطهم، تمسك طبقا بلاستيكيا وتأكل المكمورة.

أربعة أيام مرَّت، تم تجديد الجامع، والميضة. طلب الناس من الشـيخ النوبي مفتاح غرفة المقام. كانوا يعرفون أنه سيرفض طلبهم، لكن ربما يأتي بنفسه ويفتحها، ربما ينشغل مع ضريح سيدي عامر، وينسى أمر الشحات. وهـو بالفعل ما حدث، مشي الشـيخ معهم، ووصـل إلى المقام، ولم يضع العباءة على الضريح. وفي الوقت نفسه تسلل مجموعة من الرجال إلى بيت الشحات، يحملون البطاطس والخبز، وأنبوبة من الغاز الطبيعي، وبعض الأطعمـة الأخرى. رمى رجـل منهم طوبة على سـطوح البيت، والبيت مقطوع، ليس جواره بيت ينطون إلى بيت الشحات من خلاله. ظهر إليهم بوجه شـاحب، فأعطوه إشـارة الأمان، نظر إلى مقعد الشيخ ولم يجده في مكانه، هرول إلى باب البيت في اللحظة التي كان الرجال يحملون الضريح ويخرجون من الغرفة، رآهم الشيخ من حجاب الغيب، يتسللون إلى بيت الشحات ويعطونه الطعام، رآه يجُرُّ شِكارة من البطاطس، وتمسك امرأته بطة سـمينة. وفي لمح البصر وجدوه أمامهم؛ مشـى على ماء الترعة، ومن

معه الله يمشي على الماء ويمشي على النار. أغلق الشحات الباب مفزوعا، وهـرول -مع صغاره- إلى الغرفة البعيدة، وارتفع صوت الشـيخ مهددا "قسـمًا عظمًا أخبط على بيوتكم واحد واحد". لأول مرة يرونه غضبانَ هكذا، كان النور يطل من عينيه دائما، والابتسـامة البشوشـة على وجهه، خاف الناس من فعلتهم، التمسـوا منه العفو والسـماح ولم يحاولوا إطعام الشحات وأولاده مرة أخرى، حتى مرت أربعين ليلة على انتظار الشيخ، أمام عتبة الشحات.

في ذلك اليوم كانت الشمس عفيّة، رغم الخريف. وبدا التعب على الشيخ النوبي. رآه الناس يتنفس بصعوبة، يقف مستندا على عكازه، ينفض التراب من عباءته، ويبتعد عن بيت الشحات، بخطوات بطيئة، والغضب يسكن صدره. لم يتخيل أن يرفض الشحات ضيافته، يتركه على باب البيت أربعين يومـا، هذه كبيرة. لم تحدث منذ حطّ على البلدة، منذ سـبعين عاما، ثمانين عاما، تسـعين عاما. سـنوات لا يذكرها، مضت دون إهانة. بصق الشيخ على الأرض، وبرطم بكلمة ما. سـمعه الناس جيدًا. قال "بخيل" وبصق على الأرض، وعاد إلى المقام، وتسـاقطت أوراق الشـجر. ارتفع الصراخ والعويل من بيت الشحات، واجتمع الناس في وقار، ليشربوا الشاي.